هذه النسخة مخصصة لشركة هائل سعيد أنعم

www.edara.com

خلاصات
كتب المدير و رجل الأعمال

العدد 721

رئيس التحرير: نسيم الصمادي
editor@edara.com

نوفمبر / تشرين ثاني 2020 - ربيع ثاني 1442
السنة 28 - العدد 31

الإدارة الحكومية

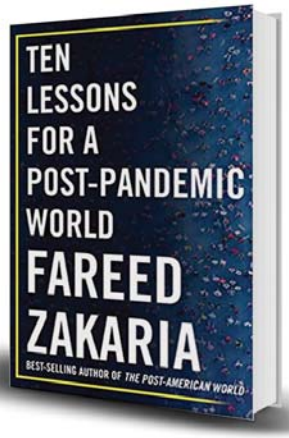

عشرةُ دروسٍ لعالَم ما بعد كورونا

هذا ليس المستقبل الذي نريد! فكيف نصنع عالماً آمناً؟

تأليف: فريد زكريا

أثر الوطواط

في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، قامت عُصبةٌ من تسعة عشر رجلاً يحملون أسلحة فردية بمهاجمة عدة أهداف استراتيجية على الأراضي الأمريكية. كانت تلك عملية إرهابية غير مسبوقة دخل العالم بعدها نفقاً مظلماً، وخسرت الأسواقُ العالمية تريليونات الدولارات، وتعرَّض الملايين حول العالم للصدمات النفسية، ودُمِرت دول كاملة وعلى رأسها العراق وأفغانستان، بسبب حفنة من المتطرفين. وما زال التطرف والتطرف المضاد، والحرب على الإرهاب مستمرة.

هذا على المستوى الأمني. وعلى المستوى الاقتصادي والاستثمار المالي راح الأمريكيون في مطلع هذا القرن يقترضون، ويتداولون عقود التأمين والرهن العقاري التي تسمح بمقايضة مخاطر الائتمان وبيعها، ثم إعادة شرائها، فحدثت طفرة افتراضية وهمية في أسواق الائتمان، وبالغت البنوك في تمويل الصفقات العقارية الوهمية، حتى تفاقمت الأزمة ووصلت قيمة العقود إلى 45 تريليون دولار، مُخلفةً انهياراً اقتصادياً في أمريكا، ثم العالم، فأفلست بنوك، ودول، وشركات عملاقة، بدأت في عام 2007، وبلغت ذروتها في عام 2008، وما زالت تبعاتها تلاحقنا حتى الآن.

واليوم، تجوب جائحة "كوفيد-19" العالم طولاً وعُرضاً، رغم أنها بدأت واندلعت بسبب وطواط حامل للفيروسات في مدينة "ووهان" الصينية، وحملت معها أثر الفراشة، فاجتاحت العالم وقلبت مُسَّلماتنا رأساً على عقب، وما زلنا نعاني ويلاتها، وسنعاني منها المزيد على المدى البعيد.

> **نحن نقوم يومياً بكل ما يسمح للجوائح بمهاجمتنا"، يقول "بيتر داسزاك"، عالم الكائنات الدقيقة والفيروسات المعدية. ويضيف: "علينا أن نفهم أن ما يحدث ليس من عمل الطبيعة. بل هو ما نفعله نحن في الطبيعة.**

الأزمات الثلاث السابقة: "جائحة كورونا"، وهجوم 11 سبتمبر، وأزمة الرهن العقاري، علَّمتنا الكثير من الدروس القاسية، ولكننا -فيما يبدو- لم نتعلم. لكن الدرس القديم الجديد، المخيف والمفيد، هو أن الأشياء والأحداث الصغيرة قادرة على إحداث ثورات بركانية، وأزمات إنسانية، وحرائق جهنمية، وأزمات بيئية، وكوارث صحية؛ تكفي كل واحدة منها لهزِّ العالم شرقه وغربه، وشل تفكير العلماء والخبراء والحكماء والرؤساء، وتعجيز عقل إنسان القرن الحادي والعشرين بعدما تكَبَّر وتجَبَّر.

> **ما يحول بيننا وبين انقراض البشرية، قشرة ترابية رقيقة تغطي سطح الأرض ولا يزيد سُمكُها عن عشرين سنتيمتراً.**

والآن، نحن في أمس الحاجة إلى دراسة استجاباتنا لتلك الهزَّات الصحية والأعاصير الاقتصادية التي أحدثها "كوفيد-19"، على أن ننظر من خلال عدسات مُختلفة من الحوكمة والنظريات الاقتصادية والسياسات الحكومية الداخلية وقرارات السياسة الخارجية والحلول الصحية. في رأي "فريد زكريا" تُعد جائحة "كورونا" من أكثر الأحداث تأثيراً في تاريخ البشرية، وستبقى عجلة الأحداث تتسارع من لحظة إدراكنا لخطورة الجائحة، ولسنوات قادمة. لقد كانت المبادرات التعاونية والتفاعلات الجماعية التي أبدعتها الأمم والشعوب في الاستجابة للحدث ذات منافع عظيمة، وقد تُمَّكِن البشرية من إبطاء اندفاع شلالات الأزمات المُقبلة. ومن البديهي أن تتمحور الدروس العشرة المستقاة من الجائحة حول تلك المنافع، فنختلس من خلالها النظر إلى مُستقبل العالم برمته بعد انقضاء الجائحة.

> **استخدم الإنسان الأفران منذ فجر التاريخ. واستطعنا تحسين كفاءة تلك الأفران بالتدريج كُلما اضطررنا لنخبز أو نشوي شيئاً جديداً، بطريقة جديدة. فزادت خبراتنا في تحسين الغذاء مع الأيام كلما بنينا فرناً جديداً. والآن تعمل أفراننا من خلال تطبيقات ذكية عن طريق الكمبيوتر، وكلما تقدمت برمجياتنا، تحسَّنت كفاءة أفراننا أيضاً. وهذا ما يحدث في كل مشروعاتنا وجوانب حياتنا.**

1. الدرس الأول: اربطوا الأحزمة

يمكن تشبيه الطريقة التي تتقدَّم بها حضارتُنا بسيارةٍ ذات هيكل ضعيف، تنطلق بدون كوابح آمنة، وهي تعبر طريقاً متعرِّجاً للمرةِ الأولى بأقصى سرعة. فاستهلاكنا للطعام، والطاقة، ومساحات الأرض يفوق ما كان في كل العصور السابقة. وهذا ينطبق أيضاً على إنتاجنا للفضلات وغازات الاحتباس الحراري. يبلغ مُتوسط عُمر الإنسان الذي يعيش حياةً طبيعية أعلى من الإنسان المتمدين في القرن العشرين. وما يزيد الأمر سوءً، هو الدمار المتسارع للحياة البرية والموارد الطبيعية بعد تحوُّل النظام البيئي إلى تجمعات صناعية وسكنية. أي أن عالَمنا يسيرُ إلى الموتِ بسرعةٍ مُرعبة، وسيتمخّض هذا الخلل في البيئة ومنظوماتها عن عواقب وخيمة يصعب تخيل أبعادها.

> **يصعب على الكثيرين استيعاب حقيقة ابتعاد الطبيعة عن طبيعتها؛ فقليلون هم من يفكرون في مدى عدالة ومشروعية رفاهية الإنسان اللامحدودة على حساب الكائنات الأخرى.**

أفضل مثال يوضّح هذا الطرح هو استهلاكنا للحوم. إذ تُشكِّل اللحوم نسبةً صغيرة من نظامنا الغذائي، غير أن إنتاجها يستهلك مُعظم طاقة وموارد الأراضي الزراعية في العالم. لقد تم تصميم مصانع الإنتاج الحيواني القادرة على إنتاج كميّات هائلة من الماشية والأغنام ذات الخصائص المرغوبة لتلبية الطلب العالمي. ولكن آليات تربية المواشي اللاحمة في تلك المصانع ستقضي على التنوُّع الجيني القادر على ردع التفشي الفيروسي. ونتيجة لذلك، يدفع استهلاكنا المُتعاظم للحوم مُصنِّعي الطعام إلى إدارة مصانع تشبه تجهيزات المُختبرات البحثية التي تحتضن كل أنواع الفيروسات.

> **يقول "سيجال صمويل" الكاتب في وكالة "فوكس": لقد أصبحت حيوانات المزارع، بسبب انتقاء جيناتٍ مُحددة منها - للحصول على خصائص مرغوبة مثل صدور الدواجن الكبيرة مثلاً- أصبحت متطابقة جينياً تقريباً. هذا يعني أن الفيروسات ستكون قادرة على الانتقال بسهولة من حيوانٍ لآخر من دون مواجهة أي تنوُّع جيني يعوق طريقها. وما أن يجد الفيروس طريقه إلى سربٍ أو قطيع معين، حتى يصبح أكثر فتكًا بالحيوان، وبالإنسان الذي يأكلها.**

يصبح عالمُنا بمرور الوقت أكثر انفتاحاً وديناميكية، ولكن عدم استقراره يزداد أيضاً. للتغلُّب على هذه الحالة من عدم الاستقرار، علينا أن نعُدَّ عُدَّتَنا ونربط الأحزمة استعداداً لما هو قادم، إذ تحتاج الحكومات للاستثمار في أنظمة مواجهة الكوارث. والأهم من ذلك، أن تتعلم من تلك الكوارث. وبهذه الطريقة سنتمكن من أن نصنع توازناً بين الديناميكية والانفتاح من جهة، وبين الأمن والسلامة من جهةٍ أخرى، لعلنا ننجو من أهوال الأخطار القادمة.

2. الدرس الثاني: الكيف أهم من الكم

النظام الصحي لأي دولةٍ ليس مهماً بقدر أهمية قدرة الحكومة القائمة على تنفيذ إجراءات الاستجابة للجائحة. أوضح مثال على ذلك هو أمريكا، بجبروتها وإمكاناتها العلمية والبحثية، والصحية طبعاً. احتلت الولايات المتحدة المرتبة الأولى في مؤشر جامعة "جون هوبكينز" للأمن الصحي العالمي لعام 2019، لكن أداءها في التعامل مع الأزمة كان سيئاً، بل رديئاً بدرجة مخزية. وينطبق هذا على مساحة الدولة وحجمها؛ فدول شرق آسيا مثل "سنغافورة"، و"كوريا الجنوبية"، و"تايوان"، و"هونج كونج"، وبعض الدول الأخرى مثل "نيوزيلندا"، و"الدانمارك"، كلها دول صغيرة المساحة والسكان، ولكن لعبت حكوماتها دوراً كبيراً وعبَرت بشعوبها إلى برِّ الأمان، بينما حدث النقيض في دول مثل "ألمانيا"، و"كندا"، مع أداء تلك الدول كان جيدًا في خضم الأزمة ولكن بدرجات متفاوتة. فالأمر لا علاقة له بحجم الدولة أو حكومتها أو ثروتها، بل بأهليتها وقدرتها على إدارة الأزمة واستجابتها المناسبة في الوقت المناسب. كل تلك الدول فعَّالة ومتقدمة تكنولوجياً وعلمياً والمفروض أنها تحظى بإدارة استثنائية.

ومع تفشي وباء "الفيتو" وصراع الأحزاب في الكونجرس الأمريكي، وشيوع مفاهيم اللامركزية والتنافُس بين الولايات، كانت استجابتها للأزمة الصحية كارثية، نظراً للنزعة المُعارِضة للنظام؛ الأمر الذي شلَّ جهودها في مواجهة الجائحة. فكانت جائحة "كوفيد-19" بمثابة إنذار كشَف عن علامات فشل الدولة الأمريكية، وهو فشل ما زال قائماً وسيستمر بسبب الاستقطاب وتنافر الأحزاب.

> **يأتي التنوُّع الحقيقي والثري في الحكومة نتيجة وجود وفرة من العقول المُختلفة والخبرات المتنوعة في الإدارة الحكومية، ويصل التنوُّع إلى ذروة ثرائه نتيجة تعاقب حقب زمنية مُختلفة، لكل منها أهدافه ورؤيته. ولكن أدى التنوع وتعاقب الأجيال في بعض الدول إلى صراع بين الاتجاهات المتعارضة، لا سيما في بيئات العمل، وفي مجال اتخاذ القرارات الاقتصادية والصحية أيضاً.**

لقد تجلَّت حاجةُ أمريكا إلى تعلُّم أسس ومبادئ الإدارة الحكومية السليمة. حيث أماطت هذه الأزمة اللثامَ عن حقيقة مهمة، ألا وهي أن الحكومة الجيدة هي التي يُعزّزها الاختلاف في وجهات النظر، وتحول الصراع إلى قرارات إيجابية في ظل قيادة ذات رؤية غير أنانية، تحرص على لُحمة المجتمع. والأهم من ذلك أن تكون سُلطتها المحدودة والتشريعية ذات حدود واضحة. فمن المهم أن يكون الموظفون الحكوميون في الإدارات العليا أشخاصاً مُلهمين لقيادة أوطانهم ومؤهلين لممارسة الاستقلالية، والسلطة، والتوجيه الرشيد. ظلت دول العالم قروناً وهي تتطلع إلى أمريكا بعين الاهتمام وتحاول أن تتعلم منها، لمحاكاة أفضل الممارسات التنفيذية. واليوم، حان الوقت لتعود أمريكا إلى رُشدها في الحكم والحوكمة، وتذهب تتعلم من العالم.

3. الدرس الثالث: الأسواق لا تكفي

بالنظر إلى الدول التي تحظى بأفضل ممارسات الإدارة، نجد "الدانمارك" على رأس القائمة. اشتهرت "الدانمارك"، والتي تقع في شمال شرق أوروبا بأنها أقل الدول من حيث مُعدلات الفساد على مستوى العالم، ذلك إلى جانب جودة نظام الحكم، ونشاطها، وأمنها، وديمقراطيتها. كما تُعد تلك المملكة الصغيرة إحدى أعظم الدول على الصعيدين السياسي والاقتصادي.

لطالما أشار النائب الأمريكي عن الحزب الديموقراطي "بيرني ساندرز" إلى "الدانمارك" بوصفها نموذجاً للدولة شبه الاشتراكية. ومن ثمَّ، فقد جاء الدور على أمريكا لتتعلَّم منها. إذ تسببت الجائحة في تصاعد دعوات، بل صيحات؛ تطالب الأمريكيين بنوعٍ من السياسات الاشتراكية –وليس المقصود هنا الاشتراكية بمعناها المتعارف عليه، والمُتعلِّق بملكية الحكومة لوسائل الإنتاج- بل المقصود هو التوسع في الاستثمار في الحكومة، وبذل المزيد من الجهد للتعامل مع التغيُّرات المُناخية، وفرض ضرائب مرتفعة على الأثرياء، لمساعدة كل فئات وطبقات المجتمع لتحقيق العدالة.

> **التجربة الدانمركية**
>
> **يقول عالم السياسات الحكومية والاجتماع الأمريكي "فرانسيس فوكاياما": "السؤال الجوهري لأي مجتمع بشري هو: كيف نصل إلى مستوى "الدانمارك"؟ ولا أعني بهذا "الدانمارك" الدولة بمعناها الفيزيائي والجغرافي، بل أعني الوصول إلى المُجتمع الذي يعيش في خيالنا، المجتمع المُزدهر، الديمقراطي، الآمن، الذي يحظى بنظام حكم جيد، ومستويات أقل من الفساد والجريمة. إنها التجربة الدانماركية التي تستحق الإشادة، ويمكننا التعلم منها والاستفادة".**

على أية حال، لا تُعد "الدانمارك" دولة اشتراكية باقتصادٍ موجَّه، بل هي أبعد ما تكون عن ذلك. فهي تدير اقتصاداً حُراً وتنافسياً شأنُها شأن أمريكا. ولكن الفرق هو أن "الدانمارك" تضمن لمواطنيها التسلح بالأدوات المناسبة؛ كالتعليم، وشبكات الأمان الاجتماعي والصحي. وبهذا، يتوازن نشاط التجارة الحرة وانفتاحُها، بوجودها في مُجتمع عادل وآمن ومزدهر. فقد أدركت قيادتها وإدارتها أن السوق الرأسمالي القوي ليس كافياً. بل يجب تعزيزه بسياسات تُجسد مفاهيم المساواة والعدل، مثل التوسع في الاستثمار في العلوم، والتكنولوجيا،

والتعليم، والتدريب، والمنافسة الحرة العادلة في السوق، والسياسات الضريبية التي تدعم العمال -وكل ذلك على التوازي مع الحد من دور البيروقراطية في إدارة الدولة.

4. الدرس الرابع: اسمعوا وانتبهوا

كان لأزمة "كوفيد-19" أثرٌ مباشر أدى إلى اتساع الفجوة بين فئات المجتمع المختلفة، وكانت الفجوة الأكبر بين سكان الريف وسكان المدن. إذ يشكو سكانُ الريف من تصاعد أعداد حالات الإصابة بـ"كوفيد-19"، حيث انتقلت العدوى لهم عن طريق سكان المدن، بينما يزدري المتعلمون من سكَّان المدن اليمينيين المحافظين، سكان المناطق الريفية، ويطالب أصحابُ الأعمال في المدن بتعليق العمل بسياسات الحظر الشامل وارتداء الكمامات وغيرها من الإجراءات الاحترازية، على الرغم من نصائح الخبراء في هذا الشأن.

الأخطر من ذلك هو استمرار اتساع الفجوة بين الطبقات في البلدان ذات القيادات الشعبوية مثل "أمريكا"، و"البرازيل"، و"المكسيك"، و"الهند" وغيرها، حيث التيارات الحاكمة والمتحكمة بالمؤسسات. فما الذي يجب القيام به لتضييق تلك الفجوة؟ الجواب بسيط، وهو أن يستمع الناس إلى نصائح الخبراء، ويستمع الخبراء إلى احتياجات الجمهور ومخاوفهم. على الأفراد المؤهلين، وهم عادةً من يشكلون طبقة النُخبة أن يتخلوا عن دور الوصي على عامة الناس، وأن يدَعوا العامة يفهمون كيف يعمل العلم، وأن يثقوا في قدرتهم على الاستيعاب. إضافة إلى ذلك، عليهم أن يكتسبوا ثقةَ شعوبهم باتِّباع الإجراءات التي وضعوها بأنفسهم. لا سبيل هنا للرياء. ومن ثم يجب أن يُنحِّي أعضاء اليمين السياسي القادمون من الريف الأمريكي والأوروبي الانحياز جانباً، وأن ينظروا إلى الحقيقة بموضوعية. عليهم أن يتوقَّفوا عن النظر بعين السياسيين إلى نصائح الهيئات العلمية. وبهذه الطريقة، تستطيع الدول التعامل مع الأزمات المُستقبلية بشكلٍ أفضل.

5. الدرس الخامس: حياتُنا إلكترونية

قبل تفشي الجائحة، كان هناك صراعٌ يومي بين الاقتصاد الرقمي والمادي، أي عالم الأعمال العادي. وعلى مدار السنوات القليلة، تزايدَ بالتدريج عددُ المبهورين بالمزايا التي يكفلها البيع الرقمي، وكان العائق الوحيد أمام الاستبدال الكامل للاقتصاد المادي باقتصادٍ رقميٍّ هو السلوك البشري. وقد تغيَّر كل ذلك حين نصَحَت السُلطات الحكومية حول العالم شعوبها بالبقاء في المنازل، وعدَّلت المؤسسات أنظمةَ عملها لتتحوَّل إلى العمل عن بُعد في محاولة لتحجيم انتشار الفيروس. واليوم، أصبحت الأنشطة التي اعتدنا القيام بها بأنفسنا؛ مثل التسوُّق، والاجتماعات، والاستشارات الطبية، تُجرى عبر الإنترنت من خلال محادثات الفيديو أو التجارة الإلكترونية، وذلك عملاً بمبدأ: الضرورات تبيح المحظورات. فقد أثبتت الجائحة قُدرة الإنسان على عيش حياةٍ رقمية؛ حيث نتباعد ونتفاعل في نفس الوقت.

> **توصَّلت إحدى الدراسات المنشورة في مجلّة "إم آي تي تكنولوجي ريفيو" إلى أن "هناك ما بين 32 إلى 50 مليون وظيفة في أمريكا يمكن أن تدعمها التكنولوجيا بشكلٍ كبير، للحد من المخاطر الصحية التي يتعرَّض لها الأشخاص إثر التفاعل الاجتماعي، وكذلك لحماية الإنتاجية في وقت احتدام الأزمات".**

لقد أظهرت لنا أزمةُ "كوفيد-19" ورسَمت لمحةً من المُستقبل الرقمي البعيد. وقضت أنظمةُ العمل عن بُعد على أسباب إهدار ساعاتٍ طوال كان الناس يقضونها عالقين في الزحام المروري، أو في رحلات السفر الطويلة إلى أماكن العمل. وهكذا تَوَفَّر لنا وقتُ فراغ طويل، ومَنحنا هذا المزيدِ من الفرص لتأمل بعض الأمور

المُجردة كسعادتنا وأهدافنا. وقد دفع هذا الخبراء أن يتوقعوا حدوث نفس الشيء حين تتولّى الآلات وأنظمة الذكاء الاصطناعي مُعظم وظائفنا، وتتمكّن من إتمام مهامنا بدِقّة وكفاءة مثالية. وحينئذٍ سيحتاج الناسُ إلى إعادة تقييم أهدافهم الحياتية والتحوُّل إلى هواياتهم، الجيد منها أو السيئ، لصقلِ إنسانيتهم. ومع تسارع الانتقال إلى المستقبل الرقمي بعد انقضاء الجائحة، سنُجبَرُ على أن نعيش حياة رقمية كجزءٍ من الواقع الجديد. ونظراً لأن الحياة الرقمية محاكاةٌ ضعيفةٌ للواقع، فسنتعلَّم كيف نُقدِّر قيمة الأشياء التي تحفظ لنا أدميتنا حق التقدير.

6. الدرس السادس: الإنسان حيوان اجتماعي

من البديهي أن تقع المُدن دائماً في بؤرة الأزمات الصحية. فكثافةُ سُكّانها واستمرار تنقُّلاتهم تجعلهم مغناطيساً مثالياً لجذب الأمراض. ومن ثمَّ، فمن الطبيعي أن يَفرَّ الأشخاص من المُدن في فترات تفاقم الأوبئة والجوائح. لوحِظت هذه الظاهرة حين ضرب الطاعون مدينتي "فلورانسا" و"فيلادلفيا" في القرن الرابع عشر، ومن بعده وباء "الحُمّى الصفراء" في عام 1793. واليوم نلاحظ الظاهرة نفسها مع إخلاء المُدن الكُبرى خلال جائحة "كوفيد-19".

> **المدينة تُشبه قصيدة الشعر، إذ تضم أبراجها وأزقتها وقلبُها الحياةَ بأكملها، بكل أعراق البشر وسُلالاتهم؛ كل ذلك داخل دائرة أو جزيرة صغيرة. ثم تضيف الموسيقى ليكتمل عمل مُحركاتها الداخلية." وبلا شكّ، تُعد جزيرة "مانهاتن" مكاناً لأكبر تجمع بشري على وجه البسيطة، فهي القصيدة التي يفهم سحرَها ملايين من مواطنيها، ولكن يظل معناها الكامل غامضاً مُبهماً، مثل غموض الجائحة وأسرارها القاتلة.**

فإنه نظراً إلى النزوح الجماعي للبشر، فسوف يدور حديثُنا عن موت المُدن الكبرى في حقبة ما بعد الجائحة. ومن منظور تاريخي، تعود المُدن إلى الحياة دائماً بعد انتهاء أزماتها. ولكن الحقيقة التي تقول بأن نُظم العمل عن بُعد، والتعلُّم عن بُعد، والتجارة الإلكترونية قد جعلت الحياة في المراكز الريفية أكثر أماناً ويُسراً، دفعت بعضَنا للاعتقاد بأن هذه المرة ستكون مختلفة –أي أن المراكز الحضرية ستستمر في التراجع.

> **يصف "فرانسيس فوكوياما" قوة الأنظمة الموروثة قائلاً: "لقد قامت مستعينةً باللبنات الأساسية للاختلاط البشري، بعبارة أخرى، فإنها ستبقى قائمة على الميل البيولوجي الإنساني إلى تفضيل العائلة والأصدقاء، الذين تبادلوا الفضلَ وورثوا التاريخ وبصمات ثقافة الماضي فيما بينهم".**

ولكن ما لم يفكر فيه أنصار تلك الرؤية هو طبيعة الإنسان الاجتماعية المفرطة. أشار "أرسطو" إلى أن الإنسان حيوان اجتماعي ينزع بشكلٍ طبيعي ومتوارث إلى التعاون والتفاعل المادي مع أبناء جنسه. ومن ثمَّ، فنحن لا نستطيع أن نُقصر الحياة في المناطق الريفية على التعاملات الرقمية؛ فالتعامل وجهاً لوجه يجعل حياتَنا أكثرَ جدوى، وسيتكوَّن النموذجُ المثالي للحياة من مزيجٍ بين الحياة الرقمية المُريحة، ورأس المال الاجتماعي العميق والمحدود في ذات الوقت.

هذه الطبيعة الاجتماعية التي يتَّسمُ بها البشر هي السبب وراء ازدهار المُدن واستمرار الوجود الحضري في المستقبل. فالمدن التي ستتمكن من استغلال هذا السكون المؤقت في حلِّ مشكلاتها طويلة المدى، ستعود إلى الحياة بشكلٍ أسرع. وقد ينتقل الناس من المدن الكُبرى للعيش في مدن أخرى أصغر، أو للعيش في الضواحي بينما تَظَّل حياتُهم مُتمركزةً في المُدن القريبة. سيساعدنا الحظر الكامل في المدن والارتحال إلى الريف على

تذكُّر طبيعتنا التي تحفزنا للبحث عن الصداقة، والمشاركة، والمنافسة. أي أن هذه المدن ستبقى كبيرة وصغيرة، مزدحمة وخالية، حيوية ومنطوية، جاذبة وطاردة. إنها معادلة الحياة ونزعة الإنسان نحو البقاء، فإن ضاقت بنا المدن بنينا غيرها، وإن غالبتنا وعاندتنا إداراتها، غادرناها، بعد ما كلفتنا عندما بنيناها! إنه الإنسان في خياراته وتضارب قراراته.

7. الدرس السابع: استفحال ظاهرة عدم المساواة

سينقسم العالَمُ إلى دولٍ ذات أنظمة حُكم جيدة وأنظمة صحيَّة متاحة للجميع، وأخرى سيئة وغير صحية. فحتى الآن، تُغلق بعض البلاد حدودَها في وجه القادمين من بلادٍ أخرى ذات مُعدلات إصابة عالية بـ"كورونا"، خوفاً من انتشار الوباء. وستسقط البلدان النامية التي اعتمدت على السياحة كمصدر رئيس للدخل وتزداد فقراً، نظراً لفشل قادتها في السيطرة على التفشِّي الفيروسي. وسيمتُد ذلك الانقسامُ أيضاً إلى المؤسسات والبشر. وسوف تستمر الصناعات العملاقة في النمو. فلا شك في أن عصر المعلومات قد بدأ حقبةً جديدة من المشروعات الناشئة التي أسسها رواد أعمال بارعون ومبدعون، إلا أن حالة الغموض وعدم اليقين التي اجتاحت مجتمعنا خلال الجائحة ستدفع الناس للتوجه نحو العلامات والماركات التجارية الكُبرى بحثاً عن الأمان. فضلاً عن أن المؤسسات الأكبر التي أسست علاقات عالمية وخطوط ائتمان قوية، سيكون لها الأفضلية في هذا الصدد، من دون شك.

كما ستلعب الثروةُ والعِرقُ دوراً كبيراً في زيادة الانقسام الناتج عن الجائحة. إذ تزداد فُرصُ تعرُّض الأشخاص الأكثر فقراً الذين لا يحظون بخيار العمل من المنزل للإصابة بالفيروس. ونظراً لاحتمالات تعرُّضهم لظروفٍ صحيَّة موجودة مُسبقاً، وتلقِّيهم خدمات صحيَّة دون المستوى، سترتفع بينهم معدلات الوفاة بفيروس "كورونا".

الفيروس لا يفرق بين الجنسيات، أو مستوى الدخل والثروة، أو الجنس والعِرْق، ولكن الطبقية الموجودة مُسبقاً في مجتمعاتنا ستجعل من الفيروس عاملاً جديداً وكبيراً للتمييز العنصري والطبقي. هذه الأزمة الصحيَّة ستزيد من تفاقم مشكلات عدم المساواة. ومن ثمَّ، سيتحتم على قادة الدُول أن يُناضلوا من أجل وصول الخدمات الصحية إلى الجميع في الجوائح المُقبلة.

8. الدرس الثامن: العولمة ما زالَت قائمة

برزت مخاوف الاعتماد المُفرط على الواردات الأجنبية، وبخاصة المُستلزمات الطبية، في الشهور الأولى من تفشِّي جائحة "كوفيد-19". فقد اتجهت بعض الدول إلى إغلاق حدودها، وفرض سياسات صارمة على التجارة، واجتهدت دول أخرى في تحقيق الاستقلال الاقتصادي. وكل هذه الإجراءات دَفَعت بعض المراقبين وخبراء الاقتصاد السياسي للتفكير في أن عصر العولمة أوشك على الانتهاء.

غير أن هذه الظاهرة ليست المشكلة ولا القضية مطلقًا. فعلى الرغم من وجود أدلة تدعم التيار المُعارض للعولمة، إلا أنه لم تُغلق أيّة دولة حدودها بالكامل خلال الجائحة، لأن ذلك سيعوق عودة اقتصادها إلى دورته الطبيعية مرة أخرى. ما حدث هو أن تباطؤ نمو التجارة والاقتصاد كان أحد الآثار المؤقتة للحظر الشامل فقط. وبطبيعة الحال، سيترتب على تكيُّف الدول مع الأزمة إعادة بناء العلاقات التجارية، وستخف وطأة مشكلات الاستيراد قريباً.

السياسات الواقعية "البراجماتية" البحتة هي التي يمكن أن تنهي عصر العولمة. وبعبارة أخرى، فإن المنافسة الضارية بين الاقتصاد الصيني المُستجد والقوة العُظمى القديمة للولايات المُتحدة هي ما سيضع حدّاً للاعتماد المتبادل بين الدول والتجارة العابرة للحدود.

9. الدرس التاسع: عالمٌ ثنائي القطب

تأثَّر المشهد الجغرافي-السياسي، أي "الجيوسياسي" بشكلٍ كبير بالأزمة الصحية. إذ تعمل الدول على تطبيق المزيد من السياسات الداخلية والخارجية لإبقاء أعداد الإصابات تحت السيطرة، لكن التوتُّر القائم بين الدول، وفي داخل الدولة الواحدة يتفاقم. لقد تغيرت العلاقاتُ الأمريكية الصينية تحديداً، بسبب التباين الملحوظ في استجابة الدولتين للجائحة. حيث كانت استجابة "واشنطن" في التعامل مع الأزمة متأخرة وواهنة، بالمقارنة بجهود "بكين" النموذجية والسريعة للتحكّم في مُنحنى الإصابات على الرغم من أن "الصين" كانت البؤرة الأولى التي انطلقت منها الجائحة. كما اختلف أيضاً نهجُ كلٍّ منهما في التعامل مع المجتمع الدولي. فبينما عملت "الصين" على تزويد الدول الأخرى بالمساعدات، سعت "الولايات المُتحدة" إلى الحد من اعتمادها على الصناعات والمستلزمات الأجنبية.

> **جاء في مقال افتتاحي نشرته صحيفة "جلوبال تايمز" الصينية: "لا يُمكن للصين أن تعتمد على أوروبا أو الولايات المُتحدة في تطوير اللقاح. على الصين أن تعتمد على نفسها في هذه المشكلة الحرجة".**

لم يعُد بالإمكان تجاهل تأثير "الصين" في النظام العالمي بعد اليوم. فقد كانت قوّة التصنيع والتصدير الصينية كافيةً لتُنحّي الولايات المُتحدة عن عرش النمو الاقتصادي في العالم. كما أن المنافسة القائمة بين أمريكا و"الصين" اليوم تعكس صورةً لنظام عالمي ثُنائي القطب. وفي السنوات المُقبلة، سيتعمَّق الصدع بين هاتين القوَّتين العُظميين وباقي دول العالم. وقد يتفاقم الوضعُ أكثر ويُسفر عن أضرار فادحة، حتى وإن لم يتحول إلى حرب مدمرة، ما لم تتيسر للدولتين قيادات حكيمة، ذات رؤية إنسانية، وقدرة على الإنصات والتعاون، وفهم معنى العولمة. وللأسف، ليس هذا هو الحال الآن.

> **الأمم المُتحاربة لن ترث الأرض؛ بل سترث تحلُّل وانتهاء الجنس البشري.**

قد يبدو كلُ ما سبق -للوهلة الأولى- تحذيراً وقلقاً لا يستهان به بشأن اندلاع حرب باردة أو ساخنة أخرى. ولكن، على عكس علاقة "روسيا" بأمريكا، نجد اقتصاد السوقين؛ الأمريكي والصيني، مترابطاً ومتداخلاً بقوة؛ وهكذا تمثل هذه العلاقة المُعقّدة سداً منيعاً أمام احتدام الصراع. ولكن في المُجمل، يُعد المشهد "الجيوسياسي" ثنائي القُطب أمراً حتمياً، غير أن الصراع لن يحدث إلا إذا أُسيئت إدارة العلاقات الصينية الأمريكية، وهذا ليس مستبعداً في ظل إدارات عنيدة؛ صينية دكتاتورية، وأمريكية بلوتوقراطية Plutocracy "حكم الطبقة الغنية".

10. الدرس العاشر: الواقعيون هم أنفسهم المثاليون

غيرت الدول، وفي مقدمتها أمريكا، استراتيجيتها في مواجهة الجائحة وحوَّلتها إلى توجه قومي خاص ومُحدد. كما أظهرت منظمةُ الصحة العالمية، المُكلَّفة بالتعامل مع الأزمات الصحية المفاجئة أداءً ضعيفاً، إذ حصرَت جهودَها في تحقيق سيطرة داخلية أقوى في البلدان المتعاونة معها. وكانت إعلانات حظر السفر من جانب واحد، إلى جانب السباق المُحتدم لتطوير اللقاح، أمثلةً واضحةً على ذلك. وفي مثل هذه الظروف وهذه المرحلة، تبدو الشراكات مُتعددة الأطراف حُلماً مثالياً كبيراً.

> كتب المُعلِّق السياسي الآيرلندي "فينتان أوتول" في شهر أبريل 2020: "على مدى أكثر من قرنين من الزمن، أثارت "الولايات المُتحدة" مشاعر متباينة ومتناقضة في نفوس كل شعوب العالم: الحب والكراهية، الخوف والأمل، الحقد والازدراء، الدهشة والغضب. وبقي هناك شعورٌ واحدٌ لم يشعر به العالم تجاه أمريكا إلى اليوم، ألا وهو: الشفقة. وهذا ما أحدثته جائحة كورونا بأمريكا أخيراً".

لقد تبين أن مبدأ التعاون الدولي في خَضَّم مشكلةٍ عالميةٍ ليس نهجاً مثالياً خالصاً. مع أنه من المعقول والمفيد للبلدان الكبيرة والصغيرة أن تتعاون فيُوحِّد الجميعُ جهودَهم ويعملوا على تكوين نظام دولي ليبرالي حديث. وبذلك، سيكون للمؤسسات الدولية مثل الأمم المُتحدة ومنظمة الصحة العالمية تأثيرٌ أكبر، إلى جانب التمويل الذي ستتلقاه من الدول المتطوّعة والقادرة على مد يد العون –حيث يتم تداول المال، والموارد البشرية، والمستلزمات الطبية بشكلٍ أسرع وأكثر كفاءة خلال أوقات الخطر. فمن الحَرِّي بالعالم المُنفتح المتعاون تجنب خوض الحروب، فضلاً عن تمهيد الطريق لحلول أكثر نجاعة ومرونة للمُعضِلات العالمية؛ وسيساعد ذلك على بناء أنظمة آمنة قادرة على مجابهة العواصف القادمة. مثل هذه التحالفات ستُمَكِّن العالَم من فعل الكثير وكسب ما هو أكثر مما يمكن لأي دولة منفردة تحقيقه بالعمل وحدها.

> يقول كارل ماركس: "الإنسان يصنع تاريخَه. ولكنه لا يصنعه كما يحلو له، ولا يصنعه تحت ظروفٍ ينتقيها بنفسه، بل تحت ظروف موجودة مُسبقاً ومفروضة عليه".

كل بداية تفرض وترسم نهاية

لا تهدف الطروحات السابقة إلى إثارة المخاوف بشأن مستقبلنا، ولكنها تَحمِل علاماتٍ وإشارات للتحذير، والدعوة للعمل، ومن المؤكد أن التحذيرَ أوْلى وأوجب من التخدير. وبعبارة أخرى، نحن لا نصف العالم ولا نتصور كيف سيكون بعد الجائحة، بل نعرض أبرز الدروس المستفادة من تجربة العالم المريرة عام 2020. كما أن السكون المؤقت والارتباك الناتج عن تنفيذ إجراءات الحظر الشامل والعُزلة سيسمح للحكومات بشحذ الإرادة السياسية التي نحن في أمس الحاجة إليها، لإحداث التغيير والإصلاح المطلوبين. وسيحدد قرارُنا؛ سواءً بانتهاز الفُرصة أو إهدارها، شكلَ عالَمِنا في المستقبل القريب. فما زلنا نحن وعالمنا على مُفترق طُرق؛ فكل ما نراه يجري في أمريكا والعالَم، يُشير ويؤكد أن اللعبة ما زالت مستمرة، والنتيجة لم تُحسم بعد.

المؤلِّف :

فريد زكريا

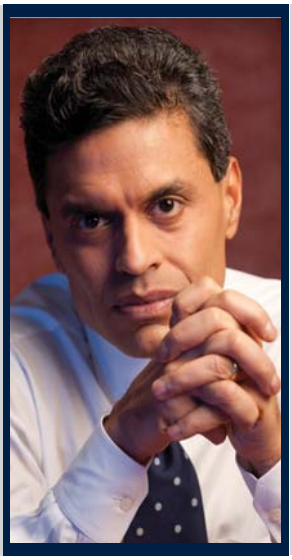

مفكر أمريكي هندي تخرّج في جامعة "هارفارد"، ويعمل محرراً سياسياً وكاتباً صحفياً في "واشنطن بوست". وقد حصل على جائزة "ناشيونال ماجازين" لكتاباته حول الشؤون الخارجية، وهو من أعمدة شبكة "سي إن إن" الإخبارية. ويُعَدُّ كتاب "عالَم ما بعد أمريكا" من أشهر مؤلفاته.

الكتـــاب

Title:	**Ten Lesson For A Post-Pandemic World:** Wildfire, Droughts, Pandemics. Is this Our Future? How to Build a Safer World
Author:	Fareed Zakaria
Publisher:	W.W. Norton. 2020
Pages:	320
ISBN:	978-0-393-54213-4